جمال عبد الناصر



أسرة المرحوم الأستاذ/ محمد إدريس
جمهورية مصر العربية

إهـــــــــداء ٢٠٠٨

أسرة المرحوم الأستاذ/ محمد إدريس

جمهورية مصر العربية

فلسفة الثورة

الطبعة الأولى

١٤٢٦ - ٢٠٠٥

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٥٧٥٦٤٢١

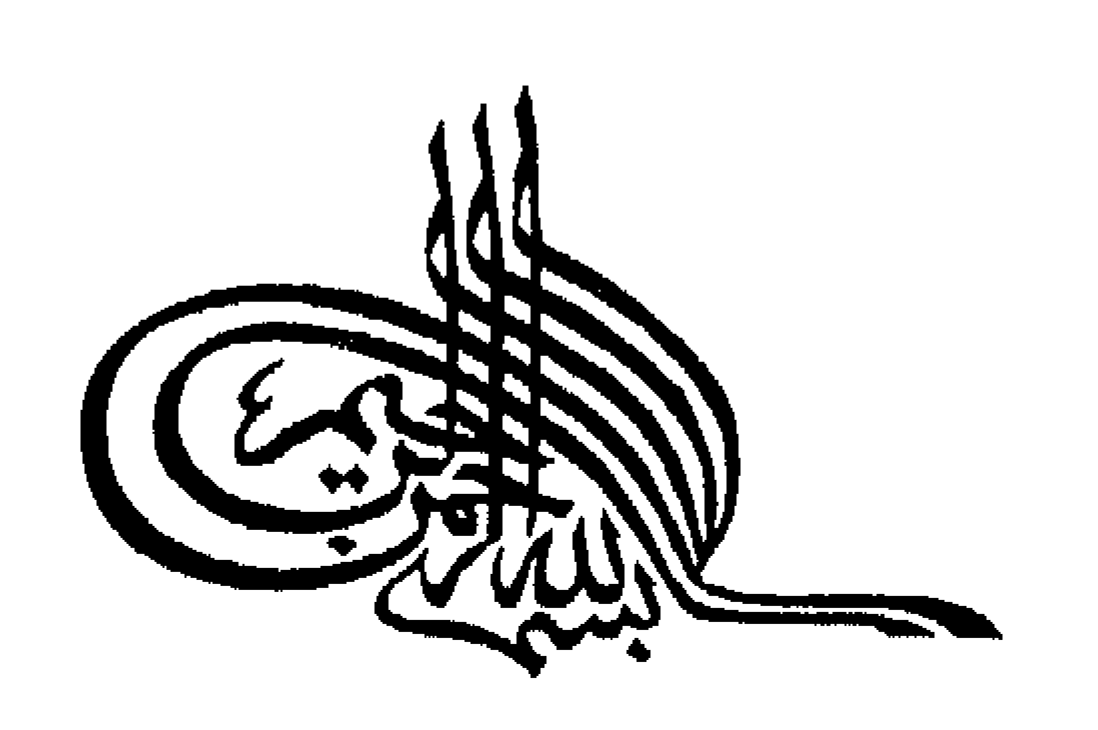
MADBOULI BOOKSHOP

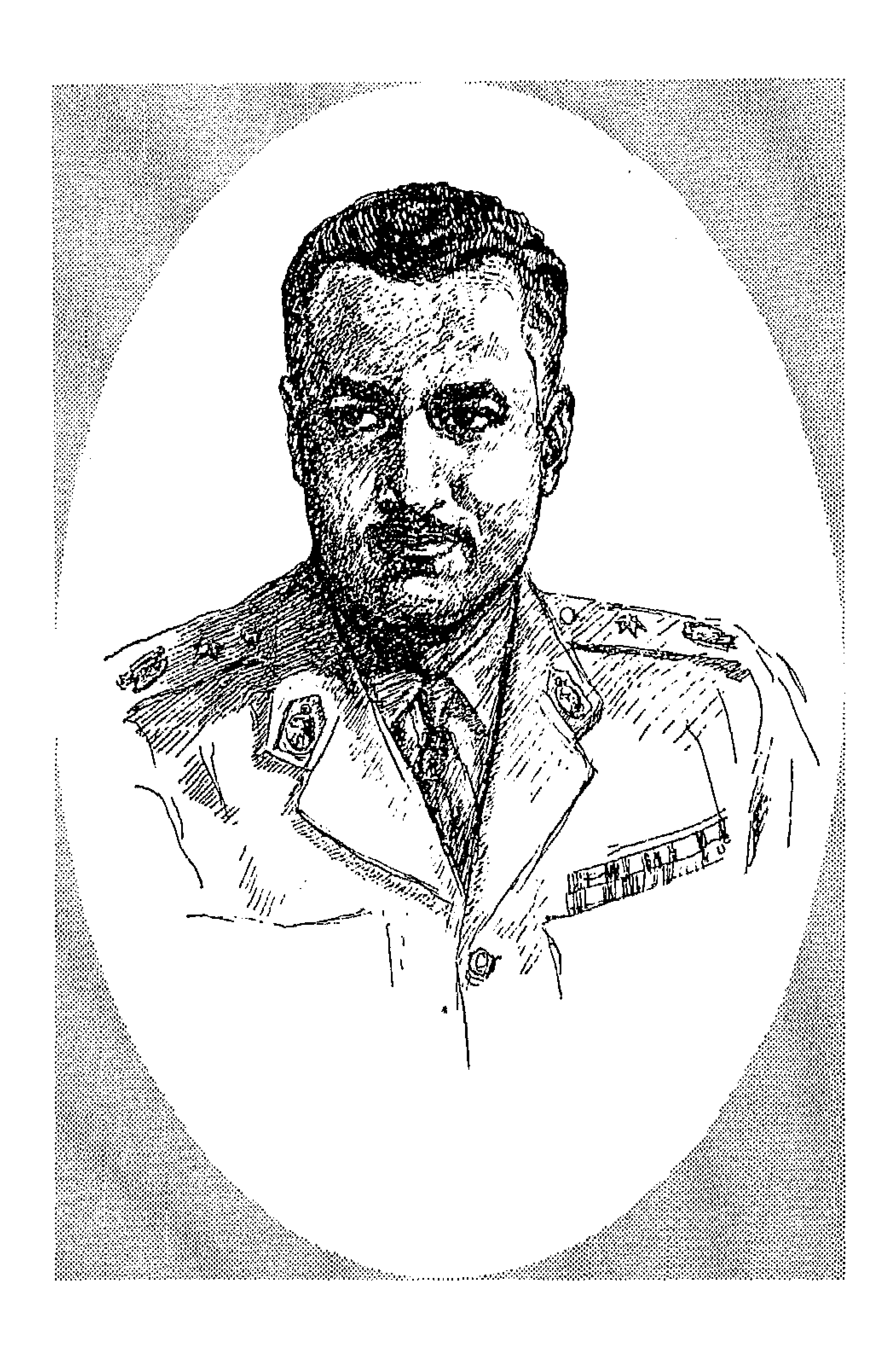
6 Talat Harb SQ . Tel . ; 5756421

جمال عبد الناصر

فلسفة الثورة

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب. القاهرة





مقدّمة

إن هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ليست محاولة لتأليف كتاب...

ولا هي محاولة لشرح أهداف ثورة ٢٣ يوليو وحوادثها...

إنما هي شيء آخر تماماً...

إنها أشبه ما تكون بدورية استكشاف...

إنها محاولة لاستكشاف نفوسنا، لكي نعرف من نحن وما هو دورنا في تاريخ مصر المتصل الحلقات...

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا في الماضي والحاضر، لكي نعرف في أي طريق نسير...

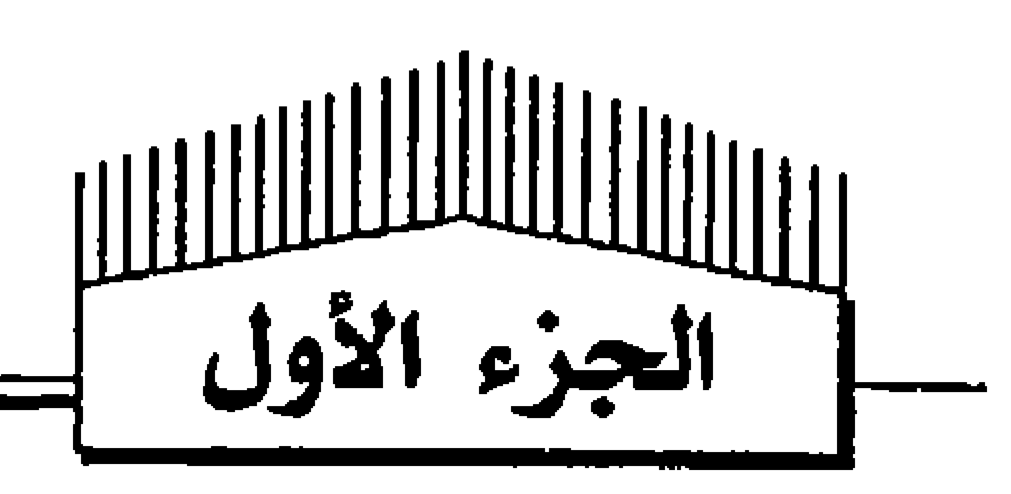
ومحاولة لاستكشاف أهدافنا، والطاقة التي يجب أن نحشدها لنحقق هذه الأهداف...

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا، لنعرف أننا لا نعيش في جزيرة يعزلها الماء من جميع الجهات.

هذا هو الذي قصدت إليه...

مجرد دورية استكشاف في الميدان الذي نحارب فيه معركتنا الكبرى من أجل تحرير الوطن من كل الأغلال!

جمال عبد الناصر



الجزء الأول

• ليست فلسفة:

قبل أن أمضي في هذا الحديث أُريد أن أقف قليلاً عند كلمة «فلسفة».

إن الكلمة ضخمة وكبيرة..

وأنا أحسّ وأنا واقف حيالها أنّي أمام عالم واسع ليس له حدود، وأشعر في نفسي برهبة خفيّة تمنعني من أن أخوض في بحر ليس له قاع، ولا أرى له على البعد من الشاطئ الذي أقف فيه، شاطئاً آخر أنتهي إليه.

والحق إني أُريد أن أتجنَّب كلمة فلسفة في هذا الذي سأقوله، ثم أنا أظن أنه من الصعب عليَّ أن أتحدَّث عن فلسفة الثورة.

من الصعب لسببين:

أولهما: إن الحديث عن فلسفة ثورة ٢٣ يوليو يلزمه أساتذة يتعمَّقون في البحث عن جذورها الضاربة في أعماق تاريخ شعبنا.

وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها

الهباء، كذلك ليس فيها مفاجآت تقفز إلى الوجود دون مقدّمات.

إن كفاح أي شعب، جيلاً بعد جيل، بناء يرتفع حجراً فوق حجر..

وكما أن كل حجر في البناء يتّخذ من الحجر الذي تحته قاعدة يرتكز عليها، كذلك الأحداث في قصص كفاح الشعوب.

كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه، وهو في الوقت ذاته مقدّمة لحدث ما زال في ضمير الغيب.

• محاولات لم تتمّ:

ولست أُريد أن أدَّعي لنفسي مقعد أُستاذ التاريخ...

ذلك آخر ما يجري به خيالي.

ومع ذلك، فلو حاولت محاولة تلميذ مبتدئ، في دراسة قصة كفاح شعبنا فإني سوف أقول مثلاً: إنّ ثورة ٢٣ يوليو هي تحقيق للأمل الذي راود شعب مصر، منذ بدأ في العصر الحديث يفكّر في أن يكون حكمه بأيدي أبنائه، وفي أن تكون له بنفسه الكلمة العليا في مصيره..

لقد قام بمحاولة لم تحقّق له الأمل الذي تمنّاه، يوم تزعم السيد «عمر مكرم» حركة تنصيب «محمد علي» والياً على مصر، باسم شعبها..

وقام بمحاولة لم تحقّق الأمل الذي تمنّاه، يوم حاول عرابي أن يطالب بالدستور. .

وقام بمحاولات متعدّدة، لم تحقّق له الأمل الذي تمناه، في فترة الغليان الفكري التي عاشها بين الثورة العرّابية وثورة سنة ١٩١٩م.

وكانت هذه الثورة الأخيرة ـ ثورة ١٩١٩م بزعامة سعد زغلول ـ محاولة أُخرىٰ لم تحقّق الأمل الذي تمنّاه.

وليس صحيحاً أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التي أسفرت عنها حرب فلسطين، وليس صحيحاً كذلك أنها قامت بسبب الأسلحة الفاسدة التي راح ضحيّتها جنود وضباط، وأبعد من ذلك عن الصحة ما يقال أن السبب كان أزمة انتخابات نادي ضباط الجيش.

إنما الأمر في رأيي كان أبعد من هذا وأعمق أغواراً.

● ليست مجرّد تمرّد:

ولو كان ضباط الجيش حاولوا أنْ يثوروا لأنفسهم لأنّه قد غُرِّر بهم في فلسطين، أو لأنّ الأسلحة الفاسدة أرهقت أعصابهم، أو لأنّ اعتداء وقع على كرامتهم في انتخابات نادي ضباط الجيش، لما كان الأمر يستحقّ أن يكون ثورة، ولكان أقرب الأشياء إلى وصفه أنه مجرّد تمرّد، حتى وإن كانت الأسباب التي أدَّت إليه منصفة عادلة في حدّ ذاتها.

لقد كانت هذه كلها أسباباً عارضة..

وربما كان أكبر تأثير لها أنها تستحثّنا على الإسراع في طريق الثورة، ولكنّنا كنّا من غيرها نسير على هذا الطريق.

وأنا أُحاول اليوم بعد كل ما مرَّ بي من أحداث، وبعد سنوات طويلة من بدء التفكير في الثورة، أن أعود بذاكرتي وأتعقب اليوم الأول، الذي اكتشفت فيه بذورها في نفسي.

إن هذا اليوم أبعد في حياتي من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١م؛ أيام ابتداء أزمة نادي الضباط. ففي ذلك الوقت كان تنظيم الضباط الأحرار قائماً يباشر عمله ونشاطه، بل أنا لا أُغالي إذا قلت: إن أزمة انتخابات النادي أثارها أكثر من أي شيء آخر في نشاط الضباط الأحرار، فقد شئنا في ذلك الوقت أن ندخل معركة نجرِّب فيها قوّتنا على التكتّل، وعلى التنظيم.

وهذا اليوم ـ في حياتي أيضاً ـ أبعد من بدء فضيحة الأسلحة الفاسدة، فقد كان تنظيم الضباط الأحرار موجوداً قبلها، وكانت منشوراتهم أول نذير بتلك المأساة، وكان نشاطهم وراء الضجة التي قامت حول الأسلحة الفاسدة.

بل إن هذا اليوم في حياتي أبعد من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨م، ذلك اليوم الذي كان بداية حياتي في حرب فلسطين.

● **كُنّا في فلسطين، وأحلامنا في مصر:**

وحين أُحاول الآن أن أستعرض تفاصيل تجاربنا في فلسطين أجد شيئاً غريباً:

فقد كنا نحارب في فلسطين، ولكن أحلامنا كلها في مصر. كان رصاصنا يتّجه إلى العدو الرابض أمامنا في خنادقه، ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذي تركناه للذئاب ترعاه.

وفي فلسطين كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس، وتبحث، وتجتمع في الخنادق والمراكز.

في فلسطين جاءني «صلاح سالم»، و«زكريا محيي الدين»، واخترقا الحصار إلى الفالوجة، وجلسنا في الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية، كان حديثنا الشاغل وطننا الذي يتعيَّن علينا أن نحاول إنقاذه.

● **أحمد عبد العزيز قبل موته:**

وفي فلسطين جلس بجواري مرة كمال الدين حسين وقال لي، وهو ساهم الفكر شارد النظرات:

ـ هل تعلم ماذا قال لي أحمد عبد العزيز قبل أن يموت؟..

قلت:

ـ ماذا قال؟..

قال كمال الدين حسين، وفي صوته نبرة عميقة، وفي عينيه نظرة أعمق:

ـ لقد قال لي: اسمَع يا كمال، إن ميدان الجهاد الأكبر هو في مصر..

ولم ألتقِ في فلسطين بالأصدقاء الذين شاركوني في العمل من أجل مصر، وإنما التقيت أيضاً بالأفكار التي أنارت أمامي السبيل.

● **درس من إسرائيل:**

وأنا أذكر أيام كنت أجلس في الخنادق وأسرح بذهني إلى مشاكلنا..

كانت الفالوجة محاصرة، وكان تركيز العدو عليها ضرباً بالمدافع، والطيران تركيزاً هائلاً مروعاً.

وكثيراً ما قلت لنفسي:

«ها نحن هنا في هذه الجحور محاصرون، لقد غُرّر بنا، دُفعنا إلى معركة لم نعدّ لها، لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات، وتُركنا هنا تحت النيران بغير سلاح».

وحين كنت أصل إلى هذا الحدّ من تفكيري؛ كنت أجد خواطري تقفز فجأة عبر ميادين القتال، وعبر الحدود، إلى مصر، وأقول لنفسي:

هذا هو وطننا هناك، إنه فالوجة أُخرى على نطاق كبير..

إن الذي يحدث لنا هنا صورة من الذي يحدث هناك.. صورة مصغّرة..

وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء، وغُرِّر به.. ودُفع إلى معركة لم يعدّ لها، ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات، وتُرك هناك تحت النيران بغير سلاح!

وأكثر من هذا، لم يكن الأصدقاء هم الذين تحدثوا معي عن مستقبل وطننا في فلسطين، ولم تكن التجارب هي التي قرعت أفكارنا بالنذر والاحتمالات عن مصيره، بل إن الأعداء أيضاً لعبوا دورهم في تذكيرنا بالوطن ومشاكله..

ومنذ أشهر قليلة قرأت مقالات كتبها عني ضابط إسرائيلي اسمه «يردهان كوهين»، ونشرتها له جريدة «جويشن أوبزرفر»، وفي هذه المقالات روى الضابط اليهودي كيف التقى بي أثناء مباحثات واتصالات عن الهدنة وقال:

«لقد كان الموضوع الذي يطرقه جمال عبد الناصر معي دائماً هو كفاح إسرائيل ضد الإنجليز، وكيف نظّمنا حركة مقاومتنا السريّة لهم في فلسطين وكيف استطعنا أن نجنّد الرأي العام في العالم وراءنا في كفاحنا ضدهم».

ثم إن هذا اليوم ـ اليوم الذي اكتشفت فيه بذور الثورة في نفسي ـ أبعد من حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢م؛ الذي كتبت بعده خطاباً إلى صديق قلت له فيه:

«ما العمل بعد أن وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خانعين؟».

الحقيقة أني أعتقد أن الاستعمار يلعب بورقة واحدة في يده بقصد التهديد فقط، ولكن لو أنه أحسّ أن بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لانسحب كأي امرأة من العاهرات..

وطبعاً هذه حاله أو تلك عادته..

أما نحن، أما الجيش، فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الروح المعنوية، فبعد أن كنت ترى الضباط لا يتكلمون إلا عن الفساد واللهو، أصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس في سبيل الكرامة، وأصبحت تراهم وكلهم ندم لأنهم لم يتدخلوا - مع ضعفهم الظاهر - ويردّوا للبلاد كرامتها، ويغسلوها بالدماء. ولكنّ غداً لناظره قريب.

لقد حاول بعضهم بعد الحادث أن يعملوا شيئاً بغية الانتقام، ولكنّ الوقت كان قد فات، أمّا القلوب فكلها نار وأسى..

والواقع أن هذه الحركة.. أن هذه الطعنة ردّت الروح إلى بعض الأجساد، وعرّفتهم أن هناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها، وكان هذا درساً قاسياً.

• أيّام التلمذة:

وكذلك فإن هذا اليوم أبعد في حياتي من الفوران الذي عشت فيه أيام كنت طالباً أمشي مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣م.

وقد عاد الدستور بالفعل في سنة ١٩٣٥م.. وأيام كنت أسعى مع وفود الطلبة، إلى بيوت الزعماء نطلب منهم أن يتّحدوا من أجل مصر، وتألفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦م بالفعل على أثر هذه الجهود.

وأذكر أنني في فترة الفوران هذه كتبت خطاباً إلى صديق من أصدقائي قلت فيه ـ وكان تاريخه ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥م ـ:

«أخي..

خاطبت والدك يوم ٣٠ أغسطس في التليفون؛ وقد سألته عنك فأخبرني أنك موجود في المدرسة..

لذلك عوّلت على أن أكتب إليك ما كنت سأكلمك فيه تليفونياً.

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ..﴾، فأين تلك القوة التي نستعدّ بها لهم؟

إن الموقف اليوم دقيق، ومصر في موقف أدقّ. ونحن نكاد نودع الحياة ونصافح الموت، فإن بناء اليأس عظيم الأركان، فأين من يهدم هذا البناء..؟».

ثم مضيت في الخطاب إلى آخره..

وإذن... فمتى كان ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه بذور الثورة في أعماقي؟..

إنه بعيد.

فإذا أُضيف إلى هذا كله، أن تلك البذور لم تكن كامنة في أعماقي وحدي، وإنما وجدتها كذلك في أعماق كثيرين غيري، هم الآخرون بدورهم لا يستطيع الواحد منهم أن يتعقّب بداية وجودها داخل كيانه، لَاتّضَحَ إذن أن هذه البذور ولدت في أعماقنا حين ولدنا، وأنها كانت أملاً مكبوتاً خلّفه في وجداننا جيل سبقنا..

ولقد استطردت وراء هذا كله لأشرح **السبب الأول** الذي من أجله وجدت من الصعب عليّ أن أتحدّث عن فلسفة الثورة وقلت: إن هذا الحديث يلزمه أساتذة يتعمقون في البحث عن جذورها الضاربة في أعماق تاريخ شعبنا..

أما **السبب الثاني**: فهو أنني كنت بنفسي داخل الدوامة العنيفة للثورة.

والذين يعيشون في أعماق الدوامة قد تَخْفَى عليهم بعض التفاصيل البعيدة عنها..

وكذلك كنت بإيماني وعقلي وراء كل ما حدث، وبنفس الطريقة التي حدث بها، وإذن فهل أستطيع أن

أتجرّد من نفسي حين أتكلم عنه، وحين أتكلم عن المعاني المستترة وراءه؟..

أنا من المؤمنين بأنه لا شيء يمكن أن يعيش في فراغ.

حتى الحقيقة لا يمكن أن تعيش في فراغ..

والحقيقة الكامنة في أعماقنا هي: ما نتصور نحن أنه الحقيقة، أو بمعنى أصح: هي الحقيقة مضافاً إليها نفوسنا.. نفوسنا هي الوعاء الذي يعيش فيه كلّ ما فينا. وعلى شكل هذا الوعاء سوف يتشكّل كل ما يدخل فيه، حتى الحقائق.

وأنا أحاول ـ بقدر ما تستطيع طاقتي البشرية ـ أن أمنع نفسي من أن تغير كثيراً من شكل الحقيقة، ولكنْ إلى أي حدّ سوف يلازمني التوفيق؟..

هذا سؤال...

وبعده أريد أن أكون منصفاً لنفسي، ومنصفاً لفلسفة الثورة، فأتركها للتاريخ يجمع شكلها في نفسي، وشكلها في نفوس غيري، وشكلها في الحوادث جميعاً، ويخرج من هذا كله بالحقيقة كاملة..

* * *

- **الحقيقة والفراغ:**

وإذن فما الذي أُريد أن أتحدث عنه إذا كنت قد

استبعدت كلمة «فلسفة؟». . الواقع أن الذي أملكه في هذا الصدد شيئان:

أولهما: مشاعر اتخذت شكل الأمل المبهم، ثم شكل الفكرة المحدّدة، ثم شكل التدبير العملي، ثم وضع التنفيذ الفعلي في منتصف ليل ٢٣ يوليو حتى الآن. .

وثانيهما: تجارب وضعت هذه المشاعر، بأملها المبهم، وفكرتها المحددة، وتدبيرها العملي، موضع التنفيذ الفعلي في منتصف ليل ٢٣ يوليو حتى الآن. .

وعن هذه المشاعر والتجارب أُريد أن أتحدّث. .

لطالما ألحَّ على خاطري سؤال، هو:

«هل كان يجب أن نقوم، نحن الجيش، بالذي قمنا به في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م؟».

لقد قلت منذ سطور: إن ثورة ٢٣ يوليو كانت تحقيقاً لأمل كبير راود شعب مصر، منذ بدأ في العصر الحديث يفكر في أن يكون حكمه في أيدي أبنائه، وفي أن تكون له بنفسه الكلمة العليا.

• لماذا كان لا بدّ أن يتحرك الجيش؟

وإذا كان الأمر كذلك، ولم يكن الذي حدث يوم ٢٣ يوليو تمرّداً عسكرياً وليس ثورة شعبية، فلماذا قدر للجيش، دون غيره من القوى، أن يحقق هذه الثورة؟

ولقد آمنت بالجندية طول عمري، والجندية تجعل

للجيش واجباً واحداً، هو أن يموت على حدود وطنه، فلماذا وجد جيشنا نفسه مضطراً للعمل في عاصمة الوطن، لا على حدوده؟

ومرة أُخرى، دعوني أُنبّه إلى أن الهزيمة في فلسطين، والأسلحة الفاسدة، وأزمة نادي الضباط.. لم تكن المنابع الحقيقية التي تدفّق منها السيل، لقد كانت هذه كلها عوامل مساعدة على سرعة التدفق، ولكنها ـ كما سبق أن قلت ـ لا يمكن أبداً أن تكون هي الأصل والأساس.

وإذن لماذا وقع على الجيش هذا الواجب؟

قلت: إن هذا السؤال طالما ألحّ على خواطري.. ألحّ عليها ونحن في دور الأمل والتفكير والتدبير بعد ٢٣ يوليو.

وألحّ عليها في مراحل كثيرة من التجربة بعد ٢٣ يوليو.

ولقد كانت أمامنا مبررات مختلفة قبل ٢٣ يوليو تشرح لنا لماذا يجب أن نقوم بالذي قمنا به..

كنا نقول: إذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به؟

وكنا نقول: كنا نحن الشبح الذي يؤرّق به الطاغية أحلام الشعب، وقد آن لهذا الشبح أن يتحول إلى الطاغية فيبدد أحلامه هو..

• الصورة الكاملة:

وكنا نقول غير هذا كثيراً، ولكن الأهم من كل ما كنا نقوله، أننا كنا نشعر شعوراً يمتد إلى أعماق وجودنا بأن هذا الواجب واجبنا، وأننا إذا لم نقم به فإننا نكون كأننا تخلينا عن أمانة مقدسة نيط بنا حملها.

ولكنني أعترف أن الصورة الكاملة لم تتضح في خيالي إلا بعد فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو.

وكانت تفاصيل هذه التجربة، هي بعينها تفاصيل الصورة.

وأنا أشهد أنه مرّت عليّ بعد يوم ٢٣ يوليو نوبات اتهمت فيها نفسي، وزملائي، وباقي الجيش بالحماقة والجنون الذي صنعناه في ٢٣ يوليو..

لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أنّ الأمة كلها متحفزة متأهبة، وأنها لا تنتظر إلا طليعة تقتحم أمامها السور، فتندفع الأمة وراءها صفوفاً متراصّة منتظمة تزحف زحفاً مقدساً إلى الهدف الكبير..

وكنت أتصور دورنا على أنه دور طليعة الفدائيين، وكنت أظن أن دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات، ويأتي بعدها الزحف المقدس للصفوف المتراصّة المنتظمة إلى الهدف الكبير، بل قد كان الخيال يشطّ بي أحياناً؛ فيخيل إليّ أني أسمع صليل الصفوف المتراصّة،

وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم إلى الهدف الكبير. . . أسمع هذا كله ويبدو في سمعي من فرط إيماني به، حقيقة مادية، وليس مجرّد تصورات خيال. .

ثم فاجأني الواقع بعد ٢٣ يوليو. .

• الطليعة والجموع:

قامت الطليعة بمهمتها، واقتحمت سور الطغيان، وخلعت الطاغية، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الكبير. .

وطال انتظارها. .

لقد جاءتنا جموع ليس لها آخر. ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال!

كانت الجموع التي جاءت أشياعاً متفرقة، وفلولاً متناثرة، وتعطل الزحف المقدس إلى الهدف الكبير، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر. .

وساعتها أحسست وقلبي يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة أن مهمة الطليعة لم تنته في هذه الساعة، وإنما من هذه الساعة بدأت. .

كنا في حاجة إلى النظام، فلم نجد وراءنا إلا الفوضى. .

وكنا في حاجة إلى الاتحاد، فلم نجد وراءنا إلا الخلاف. .

وكنا في حاجة إلى العمل، فلم نجد وراءنا إلا الخنوع والتكاسل..

ومن هنا وليس من أي شيء آخر، أخذت الثورة شعارها.

* * *

ولم نكن على استعداد..

وذهبنا نلتمس الرأي من ذوي الرأي، والخبرة من أصحابها.

ومن سوء حظنا لم نعثر على شيء كثير..

كل رجل قابلناه لم يكن يهدف إلا إلى قتل رجل آخر..

وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا إلى هدم فكرة أخرى!

ولو أننا أطعنا كل ما سمعناه، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع الأفكار، ولما كان لنا بعدها ما نعمله إلا أن نجلس بين الأشلاء والأنقاض نندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس!

وانهالت علينا الشكاوى والعرائض بالألوف ومئات الألوف، ولو أن هذه الشكاوى والعرائض كانت تروي لنا حالات تستحق الإنصاف، أو مظالم يجب أن يعود إليها العدل، لكان الأمر منطقياً ومفهوماً، ولكن معظم ما كان

يرد إلينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون طلبات انتقام.. كأن الثورة قامت لتكون سلاحاً في يد الحاقدين والمبغضين!

• أقصى الأماني:

ولو أن أحداً سألني في تلك الأيام: ما أعزّ أمانيك؟ لقلت له على الفور:

ـ أنْ أسمع مصرياً يقول كلمة إنصاف في حق مصري آخر، وأن أُحسَّ أنّ مصرياً قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لإخوانه المصريين، وأن لا أرى هناك بعد ذلك كله أنانية فردية مستحكمة..

كانت كلمة «أنا» على كل لسان..

كانت هي الحل لكل مشكلة، وهي الدواء لكل داء..

وكثيراً ما كنت أُقابل كبراء ـ أو هكذا تسميهم الصحف ـ من كل الاتجاهات والألوان، وكنت أسأل الواحد منهم عن مشكلة ألتمس عنده حلاًّ لها، فلم أكن أسمع إلا «أنا»..

مشاكل الاقتصاد «هو» وحده يفهمها، أما الباقون جميعاً فهم في العلم بها أطفال يَحْبون.

ومشاكل السياسة «هو» وحده الخبير بها، أما الباقون جميعاً فما زالوا في «ألف باء» لم يتقدموا بعدها حرفاً واحداً.

وكنت أُقابل الواحد من هؤلاء، ثم أعود إلى زملائي فأقول لهم في حسرة:

ـ لا فائدة.. هذا رجل لو سألناه عن مشكلة صيد السمك في جزر هواي، لَمَا وجدنا عنده جواباً إلا كلمة «أنا»..!

* * *

• نموذج من أعضاء مجلس الثورة:

أذكر مرة كنت أزور فيها إحدى الجامعات، ودعوت أساتذتها وجلست معهم أُحاول أن أسمع منهم خبرة العلماء.

وتكلم أمامي منهم كثيرون.. وتكلموا طويلاً.. ومن سوء الحظ أنّ أحداً منهم لم يقدم لي أفكاراً، وإنما كل واحد منهم لم يزد على أن قدَّم لي نفسه، وكفاياته الخلقية وحدها لعمل المعجزات. ورمقني كل واحد منهم بنظرة الذي يؤثرني على نفسه بكنوز الأرض، وذخائر الخلود.

وأذكر أني لم أتمالك نفسي فقمت بعدها أقول لهم:

«إن كل فرد منا يستطيع في مكانه أن يصنع معجزة، إن واجبه الأول أن يعطي كل جهده لعمله، ولو أنكم كأساتذة جامعات فكرتم في طلبتكم وجعلتموهم ـ كما يجب عملكم الأساسي ـ لاستطعتم أن تعطونا قوى هائلة لبناء الوطن.

إن كلّ واحد يجب أن يبقى في مكانه ويبذل فيه كلّ جهده.

لا تنظروا إلينا، لقد اضطرتنا الظروف أن نخرج من أماكننا لنقوم بواجب مقدس، ولقد كنا نتمنى لو لم تكن للوطن حاجة بنا إلا في صفوف الجيش كجنود محترفين؛ إذن لبقينا فيه».

ولم أشأ ساعتها أن أضرب لهم المثل من أعضاء مجلس قيادة الثورة...

ولم أشأ أن أقول لهم: إنهم قبل أن يدعوهم الطارئ الذي دعاهم إلى الواجب الأكبر كانوا يبذلون في عملهم كل جهدهم.

ولم أشأ أن أقول لهم: إن معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أساتذة في كلية أركان الحرب، وهذا دليل امتيازهم في ناحيتهم كجنودٍ محترفين.

وكذلك لم أشأ أن أقول لهم: إن ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة، هم: عبد الحكيم عامر، وصلاح سالم، وكمال الدين حسين، رُقُّوا ترقيات استثنائية في ميدان القتال في فلسطين.

لم أشأ أن أقول لهم شيئاً من هذا، لأني لا أُريد أن أُفاخر الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة وهم إخوتي وزملائي.

* * *

• **أزمات نفسيّة:**

وأعترف أن هذا الحال كله سبَّب لي أزمة نفسية كئيبة.

ولكن التجارب فيما بعد، وتأمُّلَ هذه التجارب واستخلاص معانيها الحقيقية، خففت من وقع الأزمة في نفسي، وجعلتني ألتمس لهذا كله أعذاراً من الواقع عثرت عليها حين اتّضحت أمامي ـ إلى حدّ ما ـ الصورة الكاملة لحالة الوطن، وأكثر من هذا أعطتني الجواب عن السؤال الذي قلت إنه طالما راودني، وهو:

«هل كان يجب أن نقوم نحن الجيش، بالذي قمنا به في ٢٣ يوليو؟

• **ثورتان في وقت واحد:**

والجواب: نعم! ولم يكن هناك مهرب أو مفرّ! وأنا الآن أستطيع أن أقول: إننا نعيش في ثورتين، وليس في ثورة واحدة.

ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان:

ـ ثورة سياسية يستردّ بها حقّه في حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه، أو من جيش معْتَدٍ أقام في أرضه دون رضاه.

ـ وثورة اجتماعية، تتصارع فيها طبقاته ثم يستقرّ الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد.

لقد سبقتنا على طريق التقدّم البشري شعوب مرَّت بالثورتين؛ ولكنها لم تعشهما معاً.. وإنما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين، أما نحن فإن التجربة الهائلة التي امتحن به شعبنا هي أن تعيش الثورتان معاً في وقت واحد.

وهذه التجربة الهائلة مبعثها أن لكل من الثورتين ظروفاً مختلفة تتنافر تنافراً عجيباً، وتتصادم تصادماً مروعاً.

إن الثورة السياسية تتطلّب لنجاحها وحدة جميع عناصر الأمة، وترابطها، وتساندها، ونكرانها لذاتها في سبيل الوطن كله.

والثورة الاجتماعية، من أول مظاهرها، تزلزل القيم، وتخلخل العقائد، وتصارع المواطنين مع أنفسهم أفراداً وطبقات، وتحكم الفساد والشك والكراهية والأنانية..

وبين شقَّي الرّحى هذين قُدِّر لنا أن نعيش اليوم في ثورتين:

ـ ثورة تحتم علينا أن نتحدّ، ونتحابّ، ونتفانى في الهدف.

ـ وثورة تفرض علينا برغم إرادتنا أن نتفرق، وتسودنا البغضاء ولا يفكر كل منا إلا في نفسه.

وبين شقَّي الرّحى هذين - مثلاً - ضاعت ثورة ١٩١٩م ولم تستطع أن تحقق النتائج التي كان يجب أن تحققها.

الصفوف التي تراصت في سنة ١٩١٩م تواجه الطغيان، لم تلبث إلا قليلاً حتى شغلها الصراع فيما بينها أفراداً وطبقات.

وكانت النتيجة فشلاً كبيراً، فقد زاد الطغيان بعدها تحكّماً فينا سواء بواسطة قوات الاحتلال السافرة، أو بصنائع الاحتلال المقنعة التي كان يتزعمها في ذلك الوقت السلطان فؤاد، وبعده ابنه فاروق، ولم يحصد الشعب إلا الشكوك في نفسه، والكراهية والبغضاء والأحقاد فيما بين أفراده وطبقاته.

وشحب الأمل الذي كان ينتظر أن تحققه ثورة ١٩١٩م.

ولقد قلْت: شحب الأمل، ولم أقل: تلاشى؛ ذلك لأن قوى المقاومة الطبيعية التي تدفعها الآمال الكبيرة التي تراود شعبنا كانت لا تزال تعمل، وتستعد لمحاولة جديدة.

وكان ذلك هو الحال الذي ساد بعد ثورة ١٩١٩م. والذي فرض على الجيش أن يكون وحده القوة القادرة على العمل.

كان الموقف يتطلّب أن تقوم قوة يقرِّب ما بين أفرادها إطار واحد يبعد عنهم إلى حدّ ما صراع الأفراد والطبقات، وأن تكون هذه القوة من صميم الشعب، وأن يكون في استطاعة أفرادها أن يثق بعضهم ببعض، وأن يكون في يدهم من عناصر القوة المادية ما يكفل لهم عملاً سريعاً حاسماً، ولم تكن هذه الشروط تنطبق إلا على الجيش.

وهكذا لم يكن الجيش ـ كما قلت ـ هو الذي حدّد دوره في الحوادث وإنما العكس كان أقرب إلى الصحة، وكانت الحوادث وتطوراتها هي التي حددت للجيش دوره في الصراع الكبير لتحرير الوطن.

ولقد أدركت منذ البداية أن نجاحنا يتوقف على إدراكنا الكامل لطبيعة الظروف التي نعيش فيها من تاريخ وطننا، فإننا لم نكن نستطيع أن نغير هذه الظروف بجرّة قلم، وكذلك لم نكن نستطيع أن نؤخر عقارب الساعة، أو نقدِّمها ونتحكّم في الزمن.. وكذلك لم يكن في استطاعتنا أن نقوم على طريق التاريخ بمهمة جندي المرور؛ فنوقف مرور ثورة حتى تمرّ ثورة أُخرى، ونَحُول بذلك دون وقوع حادث اصطدام. وإنما كان الشيء الوحيد الذي نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الإمكان، وننجو من أن يطحننا شقّا الرحى.

• ثورتانِ في وقت واحد:

وكان لا بد أن نسير في طريق الثورتين معاً، ويوم سرنا في طريق الثورة السياسية فخلعنا فاروق عن عرشه، سرنا خطوة مماثلة في طريق الثورة الاجتماعية فقررنا تحديد الملكية.

ـ وما زلت حتى اليوم أعتقد أنه ينبغي أن تظل ثورة ٢٣ يوليو محتفظة بقدرتها على الحركة السريعة والمبادأة، لكي تستطيع أن تحقق معجزة السير في ثورتين في وقت واحد، مهما بدا في بعض الأحيان من التناقض في تصرفاتنا.

• لكيلا لا يقع تصادم على الطريق:

وحين جاءني واحد من أصدقائي يقول لي:

«أنت تطالب بالاتحاد لمواجهة الإنجليز، وأنت في الوقت نفسه تسمح لمحاكم الغدر أن تستمر في عملها» استمعت إليه، وكانت في خيالي أزمتنا الكبيرة.. أزمة شقّي الرحى:

ـ أزمة تقتضينا أن نتّحد صفاً واحداً وننسى الماضي.

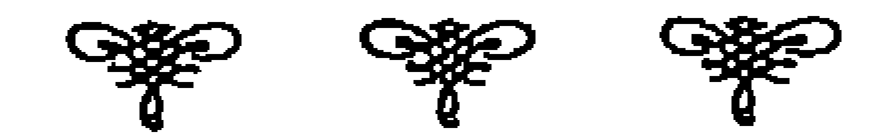
ـ وثورة تفرض علينا أن نعيد الهيبة الضائعة لقِيَم الأخلاق؛ ولا ننسى الماضي!

ولم أقل لهذا الصديق: إن منفذنا الوحيد إلى النجاة

أن نحتفظ ـ كما قلت ـ بسرعة الحركة، والمبادأة، وبالقدرة على أن نسير في طريقين في وقت واحد.

ولم أشأ أنا كذلك، ولا شاءه كل الذين شاركوا في ثورة ٢٣ يوليو.

ولكن القدر شاء، وتاريخ شعبنا، والمرحلة التي يمر بها اليوم.





الجزء الثاني

• العمل الإيجابي:

ولكن ما الذي نريد أن نصنعه؟

وما الطريق إليه؟

الحق إني في معظم الأحيان كنت أعرف الإجابة عن السؤال الأول، وأخال أني لم أكن وحدي المنفرد بهذه المعرفة، وإنما كانت تلك المعرفة أملاً انعقد عليها إجماع جيلنا كله.

أما الإجابة عن السؤال الثاني: «ما طريقنا إلى هذا الذي نريد؟»، فأنا أعترف أنها تغيَّرت في خيالي كما لم يتغيَّر شيء آخر، وأكاد أعتقد أيضاً أنها موضوع الخلاف الأكبر في هذا الجيل!

وما من شك في أننا جميعاً نحلم بمصر المتحررة القوية.. ذلك أمر ليس فيه خِلاف بين مصري ومصري.

أما الطريق إلى التحرر والقوة.. فتلك عقدة العقد في حياتنا.

ولقد واجهت تلك العقدة قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢م،

وظللت أُواجهها بعد ذلك كثيراً حتى اتضحت لي زوايا كثيرة كانت الظلال تسقط عليها فتخيفها، وبدت أمام بصيرتي آفاق كان الظلام الذي ساد وطننا قروناً طويلة يلفّها فلا أراها.

ولقد أحسست منذ انبثق الوعي في وجداني أن العمل الإيجابي وجب أن يكون طريقنا.. ولكن أي عمل؟.

ولقد تبدو كلمة «العمل الإيجابي» على الورق كافية لتحلّ المشكلة ولكنها في الحياة، وفي الظروف العسيرة التي عاشها جيلنا، وفي المحن التي كانت تنشب أظافرها في مقدّرات وطننا لم تكن كافية.

وفي فترة من حياتي كانت الحماسة هي العمل الإيجابي في تقديري، ثم تغيَّر مَثلي الأعلى في العمل الإيجابي، وأصبحت أرى أنه لا يكفي أن تضجّ أعصابي وحدي بالحماسة، وإنما عليَّ أن أنقل حماستي كي تضج بها أعصاب الآخرين.

وفي تلك الأيام قُدت مظاهرات في مدرسة النهضة، وصرخت في أعماقي بطلب الاستقلال التام، وصرخ ورائي كثيرون.. ولكن صراخنا ضاع هباء، وبدّدته الرياح أصداء واهنة لا تحرك الجبال، ولا تحطم الصخور.

ثم أصبح العمل الإيجابي في رأيي أن يجتمع كل

زعماء مصر ليتَّحدوا على كلمة واحدة، وطافت جموعنا الهاتفة الثائرة ببيوتهم واحداً واحداً تطلب إليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة. . ولكن اتحادهم على كلمة واحدة، كان فجيعة لإيماني، فإن الكلمة الواحدة التي اجتمعوا عليها كانت معاهدة سنة ١٩٣٦م.

* * *

• **الحماسة لا تكفي:**

وجاءت الحرب العالمية الثانية وما سبقها بقليل على شبابنا فألهبته، وأشاعت النار في خلجاته، فبدأ اتجاهنا، اتجاه جيل بأكمله يسير إلى العنف.

وأعترف ـ ولعل النائب العام لا يؤاخذني بهذا الاعتراف ـ أن الاغتيالات السياسية توهَّجت في خيالي المشتعل في تلك الفترة على أنها العمل الإيجابي الذي لا مفرّ من الإقدام عليه إذا كان يجب أن ننقذ مستقبل وطننا.

وفكرت في اغتيال كثيرين وجدت أنهم العقبات التي تقف بين وطننا وبين مستقبله، ورحت أُحصي جرائمهم، وأضع نفسي موضع الحكم على أعمالهم، وعلى الأضرار التي ألحقتها بهذا الوطن، ثم أُشفع ذلك بالحكم الذي يجب أن يصدر عليهم.

وفكرت في اغتيال الملك السابق وبعض رجاله الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا.

ولم أكُنْ وحدي في هذا التفكير.

ولما جلست مع غيري انتقل بنا التفكير إلى التدبير.

وما أكثر الخطط التي رسمتها في تلك الأيام وما أكثر الليالي التي سهرتها، أعد العدة للأعمال الإيجابية المنتظرة.

كانت حياتنا في تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة، كانت لنا أسرار هائلة، وكانت لنا رموز، وكنا نتستّر بالظلام، وكنا نرصّ المسدسات بجوار القنابل، وكانت طلقات الرصاص هي الأمل الذي نحلم به!

وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الاتجاه، وما زلت أذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع في الطريق إلى نهايته.

والحق أنني لم أكن في أعماقي مستريحاً إلى تصور العنف على أنه العمل الإيجابي الذي يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا.

كانت في نفسي حيرة، تمتزج بها عوامل متشابكة، عوامل من الوطنية ومن الدين، ومن الرحمة ومن القسوة، ومن الإيمان ومن الشك، ومن العلم ومن الجهل.

ورويداً رويداً وجدتُ فكرة الاغتيالات السياسية التي توهجت في خيالي، تخبو جذوتها وتفقد قيمتها في قلبي كتحقيق للعمل الإيجابي المنتظر.

• **الرصاص يتكلم:**

وأذكر ليلة حاسمة في مجرى أفكاري وأحلامي في هذا الاتجاه كنا قد أعددنا العدة للعمل.

واخترنا واحداً قلنا: إنه يجب أن يزول من الطريق.

ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ووضعنا الخطة بالتفاصيل.

وكانت الخطة أن نطلق الرصاص عليه وهو عائد إلى بيته في الليل.

ورتبنا فرقة الهجوم التي تتولى إطلاق النار، ورتبنا فرقة الحراسة التي تحمي فرقة الهجوم، ورتبنا فرقة تنظيم خطة الإفلات إلى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح.

وجاءت الليلة الموعودة وخرجت بنفسي مع جماعات التنفيذ.

وسار كل شيء طبقاً لما تصورناه:

كان المسرح خالياً كما توقعنا، وكمنت الفرقة في أماكنها التي حددت لها، وأقبل الواحد الذي كان يجب أن يزول، وانطلق نحوه الرصاص.

وانسحبت فرقة التنفيذ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة وبدأت عملية الإفلات إلى النجاة، وأدرت محرك سيارتي وانطلقت أُغادر المسرح الذي شهد عملنا الإيجابي الذي رتبناه.

وفجأة دوت في سمعي أصوات صراخ وعويل وولولة امرأة ورعب طفل، ثم استغاثة متصلة محمومة.

• صراخ وعويل!

وكنت غارقاً في مجموعة من الانفعالات الثائرة، والسيارة تندفع بي مسرعة.

ثم أدركت شيئاً عجيباً.

كانت الأصوات ما زالت تمزق سمعي.

الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة المحمومة.

لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسري الصوت، ومع ذلك بدأ ذلك كله يلاحقني ويطاردني.

ووصلت إلى بيتي، واستلقيت على فراشي وفي عقلي حمى، وفي قلبي وضميري غليان متصل.

وكانت أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة ما زالت تطرق سمعي.

ولم أنم طوال الليل.

بقيت مستلقياً على فراشي في الظلام، أُشعل سيجارة وراء سيجارة، وأَسْرح مع الخواطر الثائرة، ثم تتبدَّد كل خواطري على الأصوات التي تلاحقني.

• أكنت على حق؟

وأقول لنفسي في يقين:

ـ دوافعي كانت من أجل وطني!

• أكانت تلك الوسيلة هي التي لا مفرّ منها؟

وأقول لنفسي في شك:

ـ ماذا كان في استطاعتنا أن نفعل؟

• أيمكن حقاً أن يتغيَّر مستقبل بلدنا إذا خلصناه من هذا الواحد أو من غيره، أم أن المسألة أعمق من هذا؟

وأقول لنفسي في حيرة:

ـ أكاد أحس أن المسألة أعمق.

• إننا نحلم بمجد أُمة فما هو الأهم: أيمضي من يجب أن يمضي؟ أم يجيء مَن يجب أن يجيء؟..

وأقول لنفسي وإشعاعات من النور تتسرَّب بين الخواطر المزدحمة:

ـ بل المهم أن يجيء من يجب أن يجيء.. إننا نحلم بمجد أُمة ويجب أن يُبنى هذا المجد!

وأقول لنفسي ـ وما زلت أتقلب في فراشي في الغرفة التي ملأها الدخان وتكاثفت فيها الانفعالات ـ:

ـ وإذن؟..

وأسمع هاتفاً يردّ عليَّ:

ـ وإذن ماذا؟.

وأقول لنفسي في يقين هذه المرة:

ـ إذن يجب أن يتغيَّر طريقنا.. ليس ذلك هو العمل الإيجابي الذي يجب أن نتجه إليه.. المسألة أعمق جذوراً وأكثر خطورة وأبعد أغواراً.. وأُحس براحة نفسية صافية، ولكن الصفاء ما يلبث أن تمزِّقه هو الآخر أصوات الصراخ، والعويل، والولولة، والاستغاثة؛ تلك التي ما زالت أصداؤها ترنّ في أعماقي.

ووجدت نفسي أقول فجأة:

ـ ليته لا يموت!

وكان عجيباً أن يطلع عليَّ الفجر، وأنا أتمنى الحياة للواحد الذي تمنيت له الموت في المساء!

وهرعت في لهفة إلى إحدى صحف الصباح..

وأسعدني أن الرجل الذي دبرت اغتياله.. قد كتب له النجاة، ولكن تلك لم تكن المشكلة الأساسية.. وإنما المشكلة الأساسية.. هي العثور على العمل الإيجابي.

ومنذ ذلك الوقت بدأ تفكيرنا الحقيقي في شيء أعمق جذوراً، وأكثر خطورة وأبعد أغواراً.

وبدأنا نرسم الخطوط الأولى للصورة التي تحققت مساء ٢٣ يوليو؛ ثورة منبعثة من قلب الشعب، حاملة لأمانيه، مكملة لنفس الخطوات التي خطاها من قبل على طريق مستقبله.

ولقد بدأت هذا الحديث بسؤالين:

أولهما: ما الذي نريد أن نصنعه؟..

والثاني: وما هو طريقنا إليه؟..

وقلت: إن الإجابة عن السؤال الأول أمل انعقد عليه الإجماع..

أما السؤال الثاني: ما طريقنا إلى الذي نريد أن نصنعه؟ فهو الذي أطَلْت فيه الكلام حتى وصلت إلى ٢٣ يوليو..

ولكن أكان الذي حدث يوم ٢٣ يوليو هو كل ما نريد أن نصنعه؟

المؤكد أن الجواب بالنفي، فإن تلك لم تكن إلا الخطوة الأولى على الطريق.

والحق أن فرحة النجاح في ٢٣ يوليو لم تخدعني، ولم تصور لي أن الآمال قد تحققت وأن الربيع قد جاء.. لعل العكس هو الصحيح.

لقد كانت كل دقيقة تحمل إليّ انتصاراً جديداً للثورة، تحمل إليّ في نفس الوقت عبئاً ضخماً ثقيلاً تلقيه بلا مبالاة فوق كتفي.

ولقد قلت في الجزء الأول من هذا الحديث: «إني كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة، وأنها لا تنتظر إلا طليعة تقتحم أمامها السور فتندفع الأمة صفوفاً متراصة منتظمة زاحفة.

وقلت: إنني تصورت دورنا على أنه دور الطليعة، وكنت أتصور أنه لن يستغرق أكثر من بضع دقائق يلحق بنا بعدها زحف الصفوف المتراصة المنتظمة.

ورسمت أيضاً في ذلك الجزء صورة للخلافات والفوضى والأحقاد والشهوات التي انطلقت من عقالها في تلك اللحظات. كل منها يحاول بأنانيته أن يستغل الثورة لتحقيق أهداف بعينها.

ولقد قلت وسأظل أقول: إن تلك كانت أقسى مفاجأة في حياتي. ولكن أشهد أنه كان يجب أن أتوقع أن يحدث الذي حدث.

لم يكن يمكن أن نضغط على زر كهربائي فتتحقق أحلامنا.

ولم يكن يمكن في غمضة عين أن تزول رواسب قرون ومخلفات أجيال.

• ما أسهل أن يراق الدم!

ولقد كان من السهل وقتها ـ وما زال سهلاً حتى الآن ـ أن نريق دماء عشرة، أو عشرين، أو ثلاثين فنضع الرعب والخوف في كثير من النفوس المترددة، ونرغمها على أن تبتلع شهواتها، وأحقادها، وأهواءها.

ولكن أي نتيجة كان يمكن أن يؤدي إليها مثل هذا العمل؟..

ولقد كنت أرى أن الوسيلة لمواجهة أي مشكلة من المشاكل هو ردها إلى أصلها، ومحاولة تتبع الينبوع الذي بدأت منه.

وكان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر إلى الظروف التاريخية التي مرّ بها شعبنا، والتي تركت في نفوسنا جميعاً تلك الآثار، وصنعت منا ما نحن عليه الآن.

ولقد قلت مرة: إني لا أُريد أن أدعي لنفسي مقعد أستاذ التاريخ؛ فذلك آخر ما يجري إليه خيالي، وقلت: إني سأحاول محاولات تلميذ مبتدئ في التاريخ.

لقد شاء لنا القدر أن نكون على مفرق الطرق من الدنيا.

وكثيراً ما كنا معبراً للغزاة ومطمعاً للمغامرين، ومرَّت بنا ظروف كثيرة يستحيل علينا أن نعلل العوامل الكامنة في نفوس شعبنا إلا إذا وضعناها موضع الاعتبار.

وفي رأيي أنه لا يمكن إغفال تاريخ مصر الفرعوني، ثم تفاعل الروح اليوناني مع روحنا، ثم غزو الرومان والفتح الإسلامي وموجات الهجرة العربية التي أعقبته.

وفي رأيي أيضاً أنه يجب التوقف طويلاً عند الظروف التي مرت علينا في العصور الوسطى، فإن تلك الظروف هي التي وصلت بنا إلى ما نحن عليه الآن.

وإذا كانت الحروب الصليبية بداية فجر النهضة في أوروبا، فقد كانت بداية عهود الظلام على وطننا.

فلقد تحمل شعبنا وحده معظم أعباء الحروب الصليبية، وخرج بعدها فقيراً معدماً، منهوك القوى.

وفي نفس الوقت الذي هدَّته المعركة، شاءت له الظروف أن يعاني الذل تحت سنابك خيول الطغاة القادمين من المغول والشركس، كانوا يجيئون إلى مصر عبيداً فيفتكون بأمرائهم ويصبحون هم الأمراء.

وكانوا يساقون إليها مماليك فلا تمضي عليهم فترة في البلد الطيب الوديع حتى يصبحوا ملوكاً.

وأصبح الطغيان والظلم والخراب، طابع الحكم في مصر على عهدهم الذي عاشت مصر في مجاهله قروناً طويلة.

تلك الفترة تَحَوَّل فيها وطننا إلى غابة تحكمها وحوش ضارية.. كان المماليك يعتبرونها غنيمة سائغة، وكان الصراع الرهيب بينهم هو على نصيب كل منهم في الغنيمة.

وكانت أرواحنا، وثرواتنا وأراضينا هي الغنيمة.

* * *

- **جذور التاريخ:**

وأحياناً حينما أعود إلى تقليب صفحات من تاريخنا

أحس بالأسى يمزق نفسي إزاء تلك الفترة التي تَكَوَّن فيها إقطاع طاغ لم يجعل له من عمل إلا مص دماء الحياة من عروقنا، وأكثر من هذا سحب بقايا الإحساس بالقوة والكرامة من هذه العروق، وترك في أعماق نفوسنا تأثيراً يتعين علينا أن نكافح طويلاً لكي نتغلب عليه.

والواقع أن تصوري لهذا التأثير يعطيني في كثير من الأحيان تفسيراً لبعض المظاهر في حياتنا السياسية.

أحياناً مثلاً يخيل إليّ أن كثيرين يقفون من الثورة موقف المتفرج الذي لا يعنيه من الأمر إلا مجرد انتظار نتيجة معركة يتصارع فيها طرفان لا تربطه بأيهما علاقة.

وأحياناً أثور على هذا الوضع، وأحياناً أقول لنفسي ولبعض زملائي:

لماذا لا يقدمون؟.. ولماذا لا يخرجون من المكامن التي وضعوا فيها أنفسهم، ليتكلموا ويتحركوا؟

ولا أجد تفسيراً لهذا إلا رواسب حكم المماليك.

كان الأمراء يتصارعون، ويتطاحن فرسانهم في الشوارع، ويهرع الناس إلى بيوتهم يغلقونها عليهم بعيدين عن هذا الصراع الذي لا دخل لهم فيه.

وأحياناً يخيّل إليّ أننا نلجأ إلى خيالنا نكلفه أن يحقق لنا في إطار الوهم ما نريده، ونستمتع نحن بهذا الوهم ونقعد به عن محاولة تحقيقه.

ولم يتخلص كثيرون منّا من هذا الشعور بَعْد، ولم يهضموا أن البلد بلدهم، وأنهم سادته وأصحاب الرأي والأمر فيه.

• يا عزيز... يا عزيز!

ولقد ظللت مرة أُحاول أن أتفهم عبارة كثيراً ما هتَفْتُ بها طفلاً صغيراً حينما كنت أرى الطائرات في السماء. . لقد كنت أصيح:

«يا ربنا يا عزيز. . داهية تأخد الإنجليز». .

ولقد اكتشفت فيما بعد أننا ورثنا هذه العبارة عن أجدادنا على عهد المماليك، ولم تكن يومها منصبَّة على الإنجليز، وإنما حوَّرناها نحن أو حوَّرتها الرواسب الكامنة فينا والتي لم تتغيَّر، وإن تغير اسم الظالم. فقد كان أجدادنا يقولون:

«يا رب يا متجلي. . اهلك العثملي».

وبنفس الروح التي لم تتغير جرى المعنى على لساننا، وإنْ تغيَّر اسم «الإنجليز» باسم العثمانيين طبقاً للتغيرات السياسية التي توالت على مصر بين العهدين.

ثم ماذا حدث لنا بعد عهد المماليك؟

• الفولاذ ينهار:

جاءت الحملة الفرنسية، وتحطم الستار الحديدي

الذي فرضه المغول علينا، وتدفقت علينا أفكار جديدة..
وتفتحت لنا آفاق لم يكن لنا بها عهد..

وورثت أُسرة «محمد علي» كل ظروف المماليك، وإن حاولت أن تضع عليها من الملابس ما يناسب زي القرن التاسع عشر..

وبدأ اتصالنا بأوروبا والعالم كله من جديد..

بدأت اليقظة الحديثة!

وبدأت اليقظة بأزمة جديدة.

لقد كنا ـ في رأيي ـ أشبه بمريض قضى زمناً في غرفة مغلقة، واشتدت الحرارة داخل الغرفة المغلقة حتى كادت أنفاس المريض تختنق..

وفجأة هبَّت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب، وتدافعت تيارات الهواء الباردة تلسع جسده المريض الذي ما زال يتصبّب عرقاً.

لقد كان في حاجة إلى نسمة هواء.. فانطلق عليه إعصار عاتٍ، وأنشبت الحمى أظافرها في الجسد المنهوك القوى.

هذا هو ما حدث لمجتمعنا تماماً، وكانت تجربة محفوفة بالمخاطر!

كان المجتمع الأوروبي قد سار في تطوره بنظام، واجتاز الجسر بين عصر النهضة من أعقاب القرون

الوسطى إلى القرن التاسع عشر خطوة خطوة، وتلاحقت في حياته مراحل التطور واحدة إثر أُخرى.

أما نحن فقد كان كل شيء مفاجئاً لنا..

كنا نعيش داخل ستار من الفولاذ فانهار فجأة..

كنا قد انقطعنا عن العالم واعتزلنا أحواله، خصوصاً بعد تحول التجارة مع الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح، فإذا نحن نصبح مطمع دول أوروبا، ومعبراً إلى مستعمراتها في الشرق والجنوب.

وانطلقت علينا تيارات من الأفكار والآراء لم تكن المرحلة التي وصلنا إليها في تطورنا تؤهلنا لقبولها.

كانت أرواحنا ما زالت تعيش في آثار القرن الثالث عشر، وإن سرت في نواحيها المختلفة مظاهر القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين.

وكانت عقولنا تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التي تخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد، وكان الشوط ماضياً والسباق مروعاً مخيفاً.

وما من شك في أن هذه الحالة هي المسؤولة عن عدم وجود رأي عام قوي متّحد في بلادنا، فإن الفارق بين الفرد والفرد كبير، والفارق بين الجيل والجيل شاسع.

ولقد جاء عليّ وقت كنت أشكو فيه من أن الناس لا يعرفون ماذا يريدون، وأن إجماعهم لا ينعقد على طريق

واحد يسيرون فيه، ثم أدركت بعدها أنني أطلب المستحيل، وأنني أُسقط من حسابي ظروف مجتمعنا.

إننا نعيش في مجتمع لم يتبلور بعد، وما زال يفور ويتحرك ولم يهدأ حتى الآن، أو يتخذ وضعه المستقر، ليواصل تطوره التدريجي بعد مع بقيَّة الشعوب التي سبقتنا على الطريق.

وأنا أعتقد، دون أن أكون في ذلك متملقاً لعواطف الناس، أن شعبنا صنع معجزة، ولقد كان يمكن أن يضيع أي مجتمع تعرض لهذه الظروف التي تعرَّض لها مجتمعنا، وكان يمكن أن تجرفه هذه التيارات التي تدفقت علينا.. ولكننا صمدنا للزلزال العنيف.

صحيح أننا كدنا نفقد توازننا في بعض الظروف، ولكنّنا بصفة عامة لم نقع على الأرض.

وأنا أنظر أحياناً إلى أُسرة مصرية عادية من آلاف الأسر التي تعيش في العاصمة:

الأب مثلاً فلاح معمم من صميم الريف.

والأم سيدة منحدرة من أصل تركي.

وأبناء الأسرة في مدارس على النظام الإنجليزي. وفتياتها في مدارس على النظام الفرنسي.

• سوف يتبلور:

كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن

العشرين.. أنظر إلى هذا وأُحس في أعماقي بفهم للحيرة التي نقاسيها وللتخبط الذي يفترسنا، ثم أقول لنفسي:

ـ سوف يتبلور هذا المجتمع.. سوف يتماسك، وسوف يكون وحدة قوية متجانسة، إنما ينبغي أن نشد أعصابنا ونتحمل فترة الانتقال.

تلك إذن هي الأصول التي انحدرت منها أحوالنا اليوم، وهذه هي الينابيع التي تجري منها أزمتنا، فإذا أضفت إلى هذه الجذور الاجتماعية، ظروفاً من أجلها طردنا «فاروق» ومن أجلها نريد تحرير بلادنا من أي جندي غريب؛ إذا أضفت هذه كله، لخرجنا إلى الأفق الواسع الذي نعمل فيه، والذي تهب عليه الرياح من كل ناحية، وتزمجر في جنباته العواصف الهوجاء وتتوهج فيه البروق وتهدر الرعود، والذي قلت: إنه من الظلم أن يفرض علينا حكم الدم، مع مراعاة كل هذه الظروف والملابسات.

وإذن ما هو الطريق؟

وما هو دورنا على الطريق؟

ـ أما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية.

ـ وأما دورنا فيه فدور الحراس فقط، لا يزيد ولا ينقص.. الحراس لمدة معينة بالذات موقوتة بأجل..

● أعصاب الناس وعقولهم:

وما أشبه شعبنا الآن بقافلة كان يجب أن تلزم طريقاً

معيناً، وطال عليها الطريق، وقابلتها المصاعب وانبرى لها اللصوص وقطّاع الطرق، وضلّلها السراب فتبعثرت القافلة، كل جماعة منها شردت في ناحية، وكل فرد مضى في اتجاه.

وما أشبه مهمتنا في هذا الوضع بدور الذي يمضي فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح، ثم يتركهم يواصلون السير.

هذا هو دورنا ولا أتصور أن لنا دوراً سواه.

ولو خطر لي أننا نستطيع أن نحل كل مشاكل وطننا لكنت واهماً وأنا لا أُحب أن أتعلق بالأوهام.

إننا لا نملك القدرة على ذلك.. ولا نملك الخبرة لنقوم به..

إنما كل عملنا أن نحدد معالم الطريق كما قلت، وأن نجري وراء الشاردين فنردهم إلى حيث ينبغي أن يبدأوا المسير، وأن نلحق بالسائرين وراء السراب فنقنعهم بعبث الوهم الذي يجرون وراءه.

ولقد كنت مدركاً منذ البداية أنها لن تكون مهمة سهلة، وكنت أعلم مقدماً أنها ستكلفنا الكثير من شعبيتنا.

لقد كان يجب أن نتكلم بصراحة، وأن نخاطب عقول الناس، وكان الذين سبقونا قد تعوّدوا أن يعطوا الوهم، وأن يقولوا للناس ما يريد الناس أن يسمعوه.

وما أسهل الحديث إلى غرائز الناس، وما أصعب الحديث إلى عقولهم.

وغرائزنا جميعاً واحدة، أما عقولنا فموضع الخلاف والتفاوت، وكان ساسة مصر في الماضي من الذكاء بحيث أدركوا هذه الحقيقة فاتجهوا إلى الغريزة يخاطبونها. أما العقل فتركوه هائماً على وجهه في الصحراء.

وكنا نستطيع أن نفعل الشيء نفسه..

كنا نستطيع أن نملأ أعصاب الناس بالكلمات الكبيرة التي لا تخرج عن حد الوهم والخيال. أو ندفعهم وراء أعمال غير منظمة لم تُعدّ لها العدة، أو تتخذ لها أهبة، أو كنا نستطيع أن نترك أصواتهم تبحّ من كثرة هتافهم:

«يا ربنا يا عزيز.. داهية تاخد الإنجليز».

تماماً كما كان أجدادنا تُبَحّ أصواتهم أيام المماليك من كثرة هتافهم:

«يا رب يا متجلي.. اهلك العثملي».

وبعدها.. لا شيء..

لكن أكانت تلك مهمتنا التي شاءها لنا القدر؟

وما الذي كنا نستطيع أن نحققه فعلاً إذا سرنا في هذا السبيل؟

ولقد قلت في الجزء الأول من هذا الحديث: إن

نجاح الثورة يتوقف على إدراكها حقيقة الظروف التي تواجهها، وقدرتها على الحركة السريعة. وأُضيف الآن إلى ذلك: أنها يجب أن تتحرر من آثار الألفاظ البرّاقة، وأن تُقْدِمَ على ما تتصور أنه واجبها مهما كان الثمن من شعبيتها ومن الهتاف بحياتها والتصفيق لها!..

وإلا فإننا نكون قد تخلينا عن أمانة الثورة وعن واجباتها.

* * *

• أغْضبنا الجميع:

وكثيراً ما يجيئني من يقول لي:

ـ لقد أغضبتم كل الناس.

وعلى مثل هذه الملاحظة أردّ دائماً:

ـ ليس غضب الناس هو العامل المؤثر في الموقف، وإنما السؤال: هل كان الذي أغضبهم يعمل لصالح الوطن أو لغيره؟..

أنا أُدرك أننا أغضبنا كبار الملاك..

لكن، هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك تربة وطننا وفينا من يملك منها عشرات الألوف من الأفدنة، وفينا من لا يملك قطعة يُدفن فيها بعد أن يموت.

وأنا أُدرك أننا أغضبنا الساسة القدماء..

ولكن هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك وطننا فريسة

لشهواتهم وفسادهم وصراعهم على مغانم الحكم؟..

وأنا أُدرك أننا أغضبنا عدداً كبيراً من الموظفين..

ولكن هل كان يمكن أن نعطي أكثر من نصف ميزانية الدولة مرتبات للموظفين ولا نستطيع ـ كما صنعنا بالفعل ـ أن نخصص أربعين مليوناً من الجنيهات للمشروعات الإنتاجية؟

ماذا علينا لو كنا فتحنا ـ كما فعل غيرنا ـ خزائن الدولة ووزعنا ما فيها على الموظفين وليكن بعد ذلك الطوفان، وليكن أيضاً أن يجيء العام القادم فلا تستطيع الحكومة أن تدفع مرتبات موظفيها أصلاً وأساساً.

وما كان أسهل أن نرضي هؤلاء جميعاً وغيرهم.. ولكن ما الثمن الذي كان وطننا سيدفعه من آماله ومستقبله في مقابل هذا الرضا؟..

* * *

● **هذه حدودنا، وذلك واجبنا:**

ذلك دورنا الذي حدّده لنا تاريخ وطننا، ولا مفرّ أمامنا من أن نقوم به، مهما كان الثمن الذي ندفعه.

ولم نخطئ أبداً في فهم هذا الدور، ولا في إدراك طبيعة الواجبات التي يلقيها علينا.

تلك خطوات لإصلاح آثار الماضي ورواسبه، مضينا فيها وتحمّلنا من أجلها كل شيء.

فلما جاء الكلام عن المستقبل قلنا: إننا لا نملك هذا وحدنا.

فمن أجل ضمان الحياة السياسية في المستقبل ذهبنا إلى عدد من قادة الرأي من مختلف الطبقات والعقائد وقلنا لهم:

ـ ضعوا للبلد دستوراً يصون مقدَّساته.

وكانت لجنة وضع الدستور..

ومن أجل ضمان الحياة الاقتصادية في المستقبل ذهبنا إلى أكبر الأساتذة في مختلف نواحي الخبرة وقلنا لهم:

ـ نظموا للبلد رخاءه واضمنوا لقمة العيش لكل فرد فيه..

وكان مجلس الإنتاج..

تلك حدودنا لم نتعدها.

إزالة الصخور والعقبات من الطريق، مهما يكن الثمن: واجبنا.

والعمل للمستقبل من كل نواحيه مفتوح لكل ذوي الرأي والخبرة فرض لازم عليهم، وليس لنا أن نستأثر به دونهم، بل إن مهمتنا تقتضي أن نسعى لجمعهم من أجل مستقبل مصر.. مصر القوية المتحررة!



الجزء الثالث

- **بعد غيبة ثلاثة شهور:**

مرة ثالثة أعود إلى فلسفة الثورة.

أعود إليها بعد غيبة طويلة امتدت إلى أكثر من ثلاثة شهور حافلة بالأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة.

ثلاثة شهور حاولت خلالها أكثر من مرة أن أجد الساعات التي أُسجل فيها هذه الخواطر عن فلسفة الثورة، فعصفت رياح الأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة بهذه المحاولات وبعثرتها في الفضاء.

ولكن الرياح التي عصفت بمحاولات التسجيل لم تعصف بالخواطر نفسها، صحيح! إنّ هذه الخواطر لم تجر على ورق، ولكنها ظلت تدور في تفكيري وتتفاعل مع غيرها وتبحث عن تفاصيل أُخرى، سواء في ذاكرتي أو في الأيام، تضيفها إليها لتكمل بها صورة صحيحة واضحة.

ولكن ما هي الصورة الصحيحة الواضحة التي أُريد أن أرسمها هذه المرة؟ وما هي علاقتها بالمحاولات التي قمت بها قبل ذلك، في الجزء الأول، ثم في الجزء الثاني من هذه الخواطر عن فلسفة الثورة؟

- **الزمان، والمكان:**

لقد تحدثت في الجزء الأول عن بداية الثورة في نفوسنا، كأفراد، وفي نفوسنا كنماذج عادية من شباب جيلنا، وعن الثورة في تاريخ أُمتنا، وعن يوم ٢٣ يوليو في هذه الثورة.

وفي الجزء الثاني تحدثت عن محاولات على طريق الثورة، وكيف حدّد لنا تاريخ شعبنا هذا الطريق، سواء في نظرتنا المليئة بالعبر إلى الماضي أو في تطلعنا المفعم بالأمل إلى المستقبل.

وإذن فقد كان حديثي في الجزأين السابقين عن الزمان، ومن هنا أشعر بأن المكان يطالب بحقه، وإذن فليكن الحديث في هذه المرة عنه.

وليس هدفي أن أدخل في بحث فلسفي معقد عن الزمان والمكان وإنما الذي لا شك فيه هو أن العالم كله، لا وطننا فحسب، هو نتيجة لتفاعل الزمان والمكان.

وإذا كنت أقول: إننا في تصورنا لأحوال وطننا لا نستطيع أن ننسى عنصر الزمان، فإننا أيضاً وبنسبة متساوية لا نستطيع أن ننسى عنصر المكان.

وبعبارة أبسط:

نحن الآن لا نستطيع أن نعود إلى القرن العاشر، نرتدي ملابسه التي تبدو لعيوننا غريبة مضحكة، ونتوه في

أفكاره التي تظهر أمامنا اليوم أطباقاً من الظلام خلت من كل شعاع.

وكذلك نحن الآن لا نستطيع أن نتصرف على أننا قطعة من «الاسكا» المتعلقة بأقصى أصقاع الشمال، أو على أننا جزيرة «ويك» النائية المهجورة في تيه الباسفيك.

الزمان إذن يفرض علينا تطوره.

والمكان أيضاً يفرض علينا حقيقته.

ولقد حاولت مرتين أن أمضي مع الزمان، فلأحاول هذه المرة أن أتجول في عالم المكان.

وثمة شيء يجب أن نتفق عليه أولاً وقبل أن نمضي في هذا الحديث، ذلك هو تعريف حدود المكان بالنسبة لنا.

إن قال لي أحد: إن المكان بالنسبة لنا هو هذه العاصمة التي نعيش فيها فإني أختلف معه.. وإن قال لي أحد: إن المكان بالنسبة لنا هو حدود بلادنا السياسية فإني أيضاً أختلف معه.

ولو كان الأمر كله محصوراً في حدود عاصمتنا، أو في حدود بلادنا السياسية لهان الأمر، ولأقفلنا على أنفسنا كل الأبواب وعشنا في برج عاجي نحاول أن نبتعد فيه بقدر ما نستطيع عن العالم ومشاكله وحروبه وأزماته تلك التي تقتحم علينا أبواب بلادنا، وتؤثر فينا دون أن يكون لنا فيها دخل أو نصيب.

ولقد مضى عهد العزلة..

وذهبت الأيام التي كانت فيها خطوط الأسلاك الشائكة التي تخطط حدود الدول تفصل وتعزل.

ولم يعد مفر أمام كل بلد من أن يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ليعلم من أين تجيئه التيارات التي تؤثر فيه، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره وكيف.. وكيف..

ولم يعد مفر أمام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها في المكان، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه وما هو مجالها الحيوي وميدان نشاطها ودورها الإيجابي في هذا العالم المضطرب.

وأنا أجلس أحياناً في غرفة مكتبي وأسرح بخواطري في نفس هذا الموضوع أُسائل نفسي:

ـ ما هو دورنا الإيجابي في هذا العالم المضطرب؟

وأين هو المكان الذي يجب أن نقوم فيه بهذا الدور؟

وأستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفرّ لنا من أن يدور عليها نشاطنا وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا.

• القَدَر لا يهزل:

إن القدر لا يهزل، ليست هناك أحداث من صنع الصدفة، ولا وجود يصنعه الهباء.. ولن نستطيع أن ننظر

إلى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان.

أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها، امتزج تاريخنا بتاريخها وارتبطت مصالحنا بمصالحها، حقيقة وفعلاً لا مجرد كلام؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة إفريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها، وشاء أيضاً أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا؛ سواء أردنا أو لم نرد؟..

أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعنا **وإياه روابط لا تقرّ بها العقيدة الدينية فحسب، وإنما تشدها حقائق التاريخ؟**

- **دوائر ثلاث:**

وكما قلت مرة: إن القدر لا يهزل.

فليس عبثاً أن بلدنا في جنوب غرب آسيا يلاصق الدول العربية وتشتبك حياته بحياتها.

وليس عبثاً أن بلدنا يقع في شمال شرق إفريقيا، ويطل من علّ على القارة السوداء التي يدور فيها اليوم أعنف صراع بين مستعمريها البيض وأهلها السود من أجل مواردها التي لا تحدّ.

وليس عبثاً أن الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي

ـ الذي أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الإسلام القديمة ـ تراجع إلى مصر وآوى إليها؛ فحمته مصر وأنقذته عندما ردت غزو المغول على أعقابه في عين جالوت.

كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة في حياتنا لا نستطيع مهما حاولنا أن ننساها أو نفر منها.

ولست أدري لماذا أذكر دائماً عندما أصل إلى هذه المرحلة من أفكاري وأنا جالس وحدي في غرفتي شارداً مع الأفكار، قصة مشهورة للشاعر الإيطالي الكبير «لويدجي بيراندلو» أسماها: (ست شخصيات تبحث عن ممثلين!)

• دَوْرٌ يبحث عن بطَلِهِ:

إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها في ظروف حاسمة على مسرحه.

وإن ظروف التاريخ أيضاً مليئة بأدوار البطولة المجيدة التي لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه، ولست أدري لماذا يخيل إلي دائماً أن في هذه المنطقة التي نعيش فيها دوراً هائماً على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به، ثم لست أدري لماذا يخيل إليّ أن هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا، قد استقر به المطاف متعباً

منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك، وأن ننهض بالدور، ونرتدي ملابسه؛ فإن أحداً غيرنا لا يستطيع القيام به؟

وأُبادر هنا فأقول: إن الدور ليس دور زعامة.

إنما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة في كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة في هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور إيجابي في بناء مستقبل البشر.

وما من شك في أن الدائرة العربية هي من أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطاً بنا.

فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها المحن نفسها، وعشنا الأزمات نفسها، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت السنابك نفسها.

وامتزجت هذه الدوائر معنا أيضاً بالدين، فنقلت مراكز الإشعاع الديني، في حدود عواصمها من مكة إلى الكوفة، ثم إلى القاهرة. ثم جمعها الجوار في إطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية.

• فلسطين ليست بلداً غريباً:

وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسي أن طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل إلى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية

أخرج مع زملائي في إضراب عام في الثاني من شهر نوفمبر من كل سنة احتجاجاً على وعد بلفور الذي منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطناً قومياً في فلسطين، اغتصبته ظلماً من أصحابه الشرعيين.

وحين كنت أسائل نفسي في ذلك الوقت: لماذا أخرج في حماية، ولماذا أغضب لهذه الأرض التي لم أرها؟ لم أكن أجد في نفسي سوى أصداء العاطفة.

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري حول هذا الموضوع لمّا أصبحت طالباً في الكلية الحربية أدرس تاريخ حملات فلسطين بصفة خاصة وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التي جعلت منها في القرن الأخير فريسة سهلة تتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة!

ثم بدأ الفهم يتضح وتتكشف الأعمدة التي تتركز عليها حقائقه لما بدأت أدرس وأنا طالب في كلية أركان الحرب حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل.

ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعاً في أعماقي بأن القتال في فلسطين ليس قتالاً في أرض غريبة وهو ليس انسياقاً وراء عاطفة، وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس!

- **لقاء مع فقر فلسطين:**

وأذكر يوماً عقب صدور قرار تقسيم فلسطين في

شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧م عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعاً واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة في فلسطين وذهبت في اليوم التالي أطرق باب بيت الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، وكان لا يزال يعيش في الزيتون، وأقول له:

ـ إنكم في حاجة إلى ضباط يقودون المعركة ويدربون المتطوعين، وفي الجيش المصري عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع، وهم تحت أمرك في أي وقت تشاء!

وقال لي الحاج أمين الحسيني أنه سعيد بهذه الروح ولكنه يرى أن يستأذن الحكومة المصرية قبل أن يقول شيئاً.

ثم قال لي الحاج أمين:

ـ سوف أعطيك ردي بعد استئذان الحكومة.

وعدت إليه بعد أيام، وكان رده ـ الرد الذي حصل عليه من الحكومة ـ هو الرفض!

ولم نسكت. .

وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز تدك المستعمرات اليهودية جنوبي القدس، وكان قائد المدفعية هو كمال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التي تحولت اليوم إلى مجلس قيادة الثورة.

وأذكر سراً آخر، كان ذات يوم أغلى أسرار الضباط الأحرار:

كان حسين إبراهيم قد سافر إلى دمشق، واتصل ببعض ضباط فوزي القاوقجي. وكان القاوقجي يقود قوات التحرير العربية ويستعد لمعركة حاسمة فاصلة في المنطقة الشمالية من فلسطين.

ووضع حسن إبراهيم، وعبد اللطيف بغدادي خطة جريئة للقيام بعمل حاسم في المعركة التي تستعد لها قوات التحرير.

وكانت الخطوط البارزة في تلك الخطة هي أن قوات التحرير العربية لا تملك طيراناً يساعدها في المعركة ويرجح النصر إلى كفتها، ولو أنها حصلت على معونة من الجو بضرب مركَّز فوق ميدان العملية، لكان ذلك عاملاً فاصلاً، ولكن من أين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم؟

ولم يتردد حسن إبراهيم وعبد اللطيف بغدادي، وإنما قررا أن يقوم سلاح الطيران المصري، بهذه المهمة.

ولكن كيف؟

ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين، وكان جو الرقابة على القوات المسلحة ـ بما فيها سلاح الطيران ـ حذراً متيقظاً.

ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ منها إلى تفاصيل الخطة.

• **أغلى أسرار الطيران:**

بدأت في مطار سلاح الطيران حركة عجيبة، وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح طائرات وإعدادها، وجهود واضحة في التدريب سرت كالحمى في نفوس عدد من الطيارين.. ولم يكن هناك إلا قلائل يعرفون السر.

يعرفون أن الطائرات وقوَّادها قد أُعدّوا ليوم تجيء فيه من سوريا إشارة سرية، فينطلقون بعدها إلى الجو ليشتركوا بكل قوتهم في معركة حاسمة على الأرض المقدسة، ثم يتجهون بعد ذلك إلى مطار قرب دمشق، ينزلون فيه ويترقبون الأحوال في مصر، ويتعرفون صدى هذه الحركة التي أقدموا عليها، ثم يقررون كيف يتصرفون بعدها!

وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك في هذه العملية، وأذكر أن كثيرين كانوا قد رتبوا أُمورهم على أن الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة إلى الوطن قبل سنوات قد تطول وتمتد.

وكان شعورنا في اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار. والمؤكد أن الشعور نفسه كان يراود خواطر كل الطيارين المشتركين في السر الكبير، أن هذه المخاطرة الجريئة لم تكن حباً في المغامرة، ولا كانت ردّ فعل للعاطفة في نفوسنا، إنما كانت وعياً ظاهراً لإيماننا بأن رفح ليست

آخر حدود بلادنا، وأن نطاق سلامتنا يقضي علينا أن ندافع عن حدود إخواننا الذين شاءت لنا أحكام القدر أن نعيش معهم في منطقة واحدة.

ولم تتم الخطة يومها؛ لأننا لم نتلقَّ الإشارة السرية من سوريا.

وقضت الظروف بعدها أن تدخل الجيوش العربية كلها الحرب في فلسطين.

ولست أُريد أن أدخل في تفاصيل حرب فلسطين ـ الآن ـ فذلك بحث تتشعب فيه الأحاديث، وإنما يعنيني من حرب فلسطين درس عجيب.

لقد دخلتها شعوب العرب جميعاً بدرجة واحدة من الحماسة، وإذن فهذه الشعوب جميعاً تتشارك في شعورها وفي تقديرها لحدود سلامتها.

ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة، وإذن فهي جميعاً، كل منها في بلاده، قد تعرضت للعوامل نفسها وحكمتها القوى نفسها التي ساقتها إلى الهزيمة، ونكست رأسها بالذل والعار.

• أفكار في ميدان القتال:

ولقد خلوت إلى نفسي مرات كثيرة في خنادق عراق المنشية وفي جحورها.

وكنت يومها أركان حرب الكتيبة السادسة التي كانت

تقف في ذلك القطاع، وتدافع عنه أحياناً، وتهاجم في أكثر الأحيان.

وكنت أخرج إلى الأطلال المحطمة من حولي بفعل نيران العدو ثم أسبح بعيداً مع الخيال.

وأحياناً كانت الرحلة مع الخيال تمضي بي بعيداً بعيداً إلى آفاق النجوم، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة بأكملها.

وكانت الصورة تبدو في ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتي.

هذا هو المكان الذي نقبع محاصرين فيه، هذه مواقع كتيبتنا وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط.

وهذه قوات العدو تحيط بنا.

وهذه قوات أُخرى لنا. هي أيضاً محاصرة لا تستطيع الحركة الواسعة وإن بقي لها مجال للمناورة المحدودة.

إن الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التي نتلقى منها الأوامر تحيطها بحصار، وتلحق بها عجزاً أكثر من الذي تصنعه بنا نحن القابعين في منطقة الفالوجة.

ثم هذه قوات إخواننا في السلاح، وفي الوطن الكبير، وفي المصلحة المشتركة، وفي الدافع الذي جعلنا نهرول إلى أرض فلسطين.

هذه هي جيوش إخواننا.. جيشاً جيشاً.. كلها أيضاً محاصرة بفعل الظروف التي كانت تحيط بها، والتي كانت تحيط بحكوماتها.. لقد كانت جميعاً تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها، ولا إرادة إلا بقدر ما تحركها أيدي اللاعبين.

وكانت شعوبنا جميعاً تبدو في مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة أخفت عنها عمداً حقيقة ما يجري، وضلّلتها حتى عن وجودها نفسه.

• الأرض والنجوم:

وأحياناً كنت أهبط من ارتفاع النجوم إلى سطح الأرض، فأحس أنني إنما أُدافع عن بيتي وعن أولادي، ولا تعنيني أحلامي الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ.

وكان ذلك عندما ألتقي في تجوالي فوق الأطلال المحطمة ببعض أطفال أبناء اللاجئين الذين سقطوا في براثن الحصار بعد أن خربت بيوتهم وضاع كل ما يملكون، وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت في مثل عمر ابنتي وكنت أراها وقد خرجت إلى الخطر، والرصاص الطائش، مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خرقة قماش.

وكنت دائماً أقول لنفسي:

ـ قد يحدث هذا لابنتي!

وكنت مؤمناً أن الذي يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث ـ وما زال احتمال حدوثه قائماً ـ لأي بلد في هذه المنطقة ما دام مستسلماً للعوامل والعناصر والقوى التي تحكمه الآن.

ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك في فلسطين وعدت إلى الوطن، كانت المنطقة كلها في تصوري قد أصبحت كَلّاً واحداً.

وأيدت الحوادث التي جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد في نفسي.

كنت أُتابع تطورات الموقف فيها فأجده أصداء يتجاوب بعض مع بعض.

كان الحادث يقع في القاهرة فيقع مثيل له في دمشق غداً، وفي بيروت، وفي عمان، وفي بغداد، وغيرها.

وكان ذلك كله طبيعياً مع الصورة التي رسمتها التجارب في نفسي.

منطقة واحدة، ونفس الظروف، ونفس العوامل.. بل نفس القوى المتألبة عليها جميعاً.

وكان واضحاً أن الاستعمار هو أبرز هذه القوى.

حتى إسرائيل نفسها، لم تكن إلا أثراً من آثار الاستعمار.. فلولا أن فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطاني لما استطاعت الصهيونية أن تجد العون على

تحقيق فكرة الوطن القومي في فلسطين، ولظلت هذه الفكرة خيالاً مجنوناً ليس له أي أمل في واقع.

• نظرة إلى مذكرات وايزمان:

وأنا أكتب هذه الخواطر وأمامي مذكرات (حاييم وايزمان) رئيس جمهورية إسرائيل ومنشئها الحقيقي، وهي المذكرات التي نشرها في كتابه المشهور: «التجربة والخطأ»، وثمة عبارات معيَّنة ذات طابع خاص تستوقفني فيه..

يستوقفني قول وايزمان:

«لقد كان يجب أن تساعدنا دولة كبرى، وكانت في العالم دولتان تستطيع كل منهما مساعدتنا: ألمانيا وبريطانيا..

أما ألمانيا فقد آثرت أن تبتعد عن كل تدخل..

وأما بريطانيا فقد أحاطتنا بالرعاية والعطف».

ويستوقفني بعد ذلك قول وايزمان:

«ولقد حدث في المؤتمر الصهيوني السادس الذي عقدناه في سويسرا أن وقف «هرتزل» يعلن ليهود الدنيا أن بريطانيا العظمى، وبريطانيا العظمى وحدها دون كل دول الأرض، قد اعترفت باليهود كأمة ذات كيان مستقل منفصلة عن غيرها.. وإننا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن، وبأن تكون لنا دولة، وقرأ هرتزل خطاباً من

«اللورد لاترسون» نائباً عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى. وكان هذا الخطاب يقدم لنا أرض أوغندا لتكون وطناً قومياً.

وقرَّر أعضاء المؤتمر قبول هذا العرض..

ولكننا بعد ذلك كتمنا أنفاسه في المهد ودفناه دون ضجة.

وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا.

وعلى أثر هذا العرض ألَّفنا لجنة من عدد كبير من علماء اليهود سافروا إلى مصر لدراسة منطقة سيناء، وقابلوا في القاهرة «اللورد كرومر» المعتمد البريطاني في مصر الذي أظهر كل العطف على أمانينا في الوطن القومي.

ولكن اللجنة لم تجد في منطقة سيناء ما يفي بالغرض الذي كنا من أجله نريد الوطن القومي.

ولقد قابلت بعدها «لورد بلفور» وزير خارجية بريطانيا الذي بادر بسؤالي على الفور:

ـ لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومي في أوغندا؟

وقلت لبلفور:

ـ إن الصهيونية حركة سياسية قومية، هذا صحيح، ولكن الجانب الروحي منها لا يمكن إغفاله، وأنا واثق تمام الوثوق أننا إذا أغفلنا الجانب الروحي فإننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسي القومي.

ثم قلت لبلفور:

ـ ماذا تقول لو أنَّ أحداً قال لك: خذ باريس بدلاً من لندن، فهل تقبل؟».

ويستوقفني أيضاً قول وايزمان:

«وعدت إلى لندن في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧م وكان الغرض من رجوعي إنني دعيت إلى لندن لأشرف على كتابة مشروع وثيقة الانتداب البريطاني في فلسطين.

وكان يجب أن تعرض هذه المسودة على عصبة الأمم لتصدر بها قراراً بعد أن وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الانتداب نفسها.

وكان «لورد كيرزون» قد ولي وزارة الخارجية محل «بلفور»، وكان هو المسؤول عن وضع مشروع الوثيقة.

وكان معنا في لندن القانوني الشهير «بن كوهين»، وهو من أقدر واضعي الصيغ القانونية في العالم، وكان «إيريك فوريس آدم» سكرتير «كيرزون» يتعاون معنا.

ووقع بيننا وبين «كيرزون» خلاف أول وأخير.

كتبنا نحن في مشروع الوثيقة عبارة أردنا أن نقيد بريطانيا فيها بوعد بلفور، وبأن تكون خطتها في فلسطين قائمة على أساس الوطن القومي لليهود، وكان نص العبارة التي كتبناها نحن:

«والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية في فلسطين». .

وقال كيرزون: إنه يقترح تخفيف العبارة حتى لا يهيج العرب عند قراءتها، ويرى أن تكون العبارة كما يلي:

«والاعتراف بصلات اليهود وعلاقاتهم التاريخية في فلسطين».

وكنت أورد أن أستطرد طويلاً مع وايزمان في «التجربة والخطأ» ولكننا جميعاً نعلم أن هذه الحوادث القديمة كانت الجراثيم الأولى للمضاعفات التي مزقت كيان فلسطين فيما بعد ودمرت وجودها».

وأعود إلى الذي كنت أقوله من أن الاستعمار هو القوة الكبرى التي تفرض على المنطقة كلها حصاراً قاتلاً غير مرئي، أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذي كان يحيط بخنادقنا في «الفالوجة» وبجيوشنا جميعاً وبحكوماتنا في العواصم التي كنا نتلقى منها الأوامر.

- **الكفاح الواحد وعناصره:**

ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق في نفسي أؤمن بكفاح واحد مشترك وأقول لنفسي:

ـ ما دامت المنطقة واحدة وأحوالها واحدة، ومشاكلها واحدة، ومستقبلها واحداً، والعدو واحداً مهما حاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة، فلماذا تتشتت جهودنا؟

ثم زادتني تجربة ما بعد ثورة ٢٣ يوليو إيماناً بهذا الكفاح الواحد وضرورته.

فلقد بدأت خبايا الصورة تتكشف، والظلام الذي كان يحيط بتفاصيلها ينقشع.

وأعترف أنّني كذلك بدأت أرى العقبات الكبرى التي تسد الطريق إلى الكفاح الواحد، ولكني بدأت أؤمن بأن هذه العقبات نفسها ينبغي أن تزول لأنها من صنع ذلك العدو الواحد نفسه.

ولقد بدأت أخيراً في اتصالات سياسية من أجل توحيد الكفاح مهما كانت وسيلته، وخرجت بعد شهر من هذه الاتصالات بنتيجة هامة، هي أن العقبة الأولى في طريقنا هي «الشك» وكان واضحاً أن بذور هذا الشك قد بذرها في نفوسنا ذلك العدو الواحد نفسه لكي يحول بيننا وبين الكفاح الواحد!

وأذكر أني جلست في الأيام الأخيرة أتحدث مع أخ من ساسة العرب وكان معنا زميل له. وبدأت أتكلم، ويبدأ هو يرد على الذي أقوله..

وكان يقول العبارة، ثم يلتفت إلى زميله ليرى أثر الذي يقوله في وجهه بدل أن يحاول استكشاف أثره فيَّ أنا..

ويدأت أقول له: تغلب على كلّ ما في نفسك من

شكوك، وقل لي كل ما في قلبك، وانظر إليَّ وفي عيني ولا تدر وجهك!

ولست أُريد أن أُهون من أمر العقبات التي تحول بيننا وبين توحيد الكفاح، فلا شك أن بعضها معقد ممتد أُصوله إلى طبيعة البيئة وظروف شعوبها التاريخية والجغرافية، ولكن المؤكد أنه يمكن مع شيء من المرونة القائمة على بعد النظر، لا على التفريط، إيجاد الخط الذي يستطيع الجميع أن يقفوا فيه، بلا تحرج، وبلا عنت لمواجهة الكفاح الواحد.

ولست أشك دقيقة أنَّ كفاحنا الواحد يمكن أن يعود علينا وعلى شعوبنا بكل الذي نريده لها ونتمناه.

• القوّة بالأرقام:

ولسوف أظل دائماً أقول: إننا أقوياء ولكن الكارثة الكبرى، أننا لا ندرك مدى قوتنا!

إننا نخطئ في تعريف القوة، فليست القوة أن تصرخ بصوت عال، إنما القوة أن تتصرف إيجابياً بكل ما تملك من مقوماتها.

وحين أُحاول أن أُحلل عناصر قوتنا لا أجد مفراً من أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها يجب أن تكون أول ما يدخل في الحساب.

أول هذه المصادر أننا مجموعة من الشعوب

المتجاورة، المترابطة بكل رباط مادي ومعنوي يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب، وإن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعثت في جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاثة، لا يمكن قط إغفالها في محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام.

هذا هو المصدر الأول. أما المصدر الثاني:

فهو أرضنا نفسها ومكانها على خريطة العالم، ذلك الموقع الاستراتيجي المهمّ الذي يعتبر بحق ملتقى طرق العالم ومعبر تجارته، وممرّ جيوشه.

يبقى المصدر الثالث: وهو البترول الذي يعتبر عصب الحضارة المادية والذي بدونه تستحيل كل أدواتها ـ المصانع الهائلة الكبيرة لأنواع الانتاج كافَّةً: وسائل المواصلات في البرّ والبحر والجوّ، أسلحة الحرب سواء في ذلك الطائرات المحلقة فوق الضباب، أو الغواصة المتسترة تحت أطباق الموج تستحيل كلها قطعاً من الحديد يعلوها الصدأ لا تنبعث منها حركة.. أو حياة.

وبودي لو وقفت قليلاً عند البترول. فلعل وجوده كحقيقة مادية تقررها الإحصائيات والأرقام يصلح ليكون نموذجاً للمناقشة في أهمية مصادر القوة في بلادنا.

ولقد قرأت أخيراً رسالة طبعتها جامعة شيكاغو عن ظروف البترول، وبودي لو كان لكل فرد من أفراد شعوبنا

أن يقرأها ويتدبر معانيها ويسرح بفكره في المعنى الكبير الكامن وراء أرقامها وإحصائياتها:

تقرر هذه الرسالة مثلاً أن العمل لاستخراج بترول البلاد العربية لا يتكلف كثيراً من المال.

«لقد صرفت شركات البترول ٦٠ مليوناً من الدولارات في كولومبيا ابتداء من سنة ١٩١٦م فلم تعثر على قطرة زيت إلا في سنة ١٩٣٦م.

وصرفت هذه الشركات ٤٤ مليوناً من الدولارات في فنزويلا ولم تحصل على قطرة من الزيت إلا بعد مرور ١٥ سنة.

وصرفت هذه الشركات ٣٩ مليوناً من الدولارات في جزر الهند الهولندية، وأخيراً عثرت على الزيت».

وكانت النتيجة الأخيرة التي قررتها هذه الرسالة في هذا الموضوع:

«أن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في أمريكا هو ٧٨ سنتاً..

«وأن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في أمريكا الجنوبية هو ٤٣ سنتاً..

«وأن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في البلاد العربية هو ١٠ سنتات».

إن عاصمة إنتاج البترول في العالم قد انتقلت من

الولايات المتحدة التي استنزفت آبارها، وارتفع سعر الأرض فيها وزادت أجور الأيدي العاملة لأبنائها إلى المنطقة العربية التي ما زالت آبارها بكراً، والتي ما زالت أراضيها الشاسعة بلا ثمن، والتي ما زالت يدها العاملة تقبل ما دون الكفاف.

ولقد ثبت أن نصف الاحتياطي المحقق من البترول في العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية، والنصف الباقي موزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبي وغيرها من بلاد العالم.

وثبت أيضاً أن متوسط إنتاج البئر الواحدة في اليوم من الزيت هو:

١١ برميلاً في الولايات المتحدة.

٢٣٠ برميلاً في فنزويلا.

٤٠٠٠ برميل في المنطقة العربية.

هل أوضحت مدى أهمية هذا العنصر من عناصر القوة؟ أرجو أن أكون قد وُفّقت.

وإذن فنحن أقوياء: أقوياء ليس في علو صوتنا حين نولول، ولا حين نصرخ ولا حين نستغيث، إنما أقوياء حين نهدأ أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل وفهمنا الحقيقي لقوة الرابطة بيننا.. هذه الرابطة التي تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن

كلها، ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة.

* * *

• مسؤولياتنا في أفريقية:

هذا عن الدائرة الأولى التي لا مفر من أن ندور عليها وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا، وهي الدائرة العربية.

فإذا اتجهت بعد ذلك إلى الدائرة الثانية، وهي دائرة القارّة الإفريقية، قلت دون استفاضة ودون إسهاب: إننا لن نستطيع بحال من الأحوال حتى لو أردنا أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في أعماق إفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الإفريقيين.

لا نستطيع لسبب مهم وبديهي هو أننا في إفريقيا.

ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا، نحن الذين نحرس الباب الشمالي للقارة، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجي كله.

ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسؤوليتنا في المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء.

ويبقى بعد ذلك سبب مهم، هو أن «النيل» شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة.

ويبقى أيضاً أن السودان ـ الشقيق الحبيب ـ تمتد حدوده إلى أعماق إفريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة في وسطها.

والمؤكد أن إفريقيا الآن مسرح لفوَران عجيب مثير، وأن الرجل الأبيض الذي يمثل عدة دول أوروبية يحاول الآن إعادة تقسيم خريطتها، ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذي يجري في إفريقيا ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعنينا.

ولسوف أظل أحلم باليوم الذي أجد فيه في القاهرة معهداً ضخماً لإفريقيا يسعى لكشف نواحي القارة أمام عيوننا ويخلق في عقولنا وعياً إفريقياً مستنيراً ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها.

● **الحكمة:**

ثم تبقى الدائرة الثالثة.. الدائرة التي تمتد عبر قارات ومحيطات، والتي قلت: إنها دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة، وتهمس شفاههم الخاشعة بالصلوات نفسها.

ولقد ازداد إيماني بمدى الفاعلية الإيجابية التي يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الإسلامي بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية إلى المملكة

العربية السعودية؛ لتقديم العزاء في وفاة عاهلها الراحل الكبير.

ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطري تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام، ثم وجدتني أقول لنفسي:

ـ يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج لا يجب أن يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة.

يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة، ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صوراً طريفة لقراء الصحف وإنما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ورجال الرأي فيها، وعلماؤها في أنْحاء المعرفة كافَّةً، وكتابها، وملوك الصناعة فيها، وتجارها وشبابها، ليضعوا في هذا البرلمان الإسلامي العالمي خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معاً، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام.

يجتمعون خاشعين.. ولكنْ أقوياء. متجردين من المطامع ولكن عاملين، مستضعفين لله. ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم حالمين بحياة أُخرى.. ولكن مؤمنين بأن لهم مكاناً تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله في هذه الحياة.

وأذكر أني قلت بعض خواطري هذه لجلالة الملك سعود فقال لي الملك:

ـ إن هذه هي فعلاً، الحكمة الحقيقية في الحج، وفي الحق إني لا أستطيع أن أتصور للحج حكمة أُخرى.

• الحقيقة في الحجّ:

وحين أسرح بخيالي إلى ثمانين مليوناً من المسلمين في إندونيسيا وخمسين مليوناً في الصين، وبضعة ملايين في الملايو وسيام وبورما وما يقرب من مائة مليون في الباكستان، وأكثر من مائة مليون في منطقة الشرق الأوسط، وأربعين مليوناً داخل الاتحاد السوفييتي، وملايين غيرهم في أرجاء الأرض المتباعدة، حين أسرح بخيالي إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة، أخرج بإحساس كبير بالإمكانيات الهائلة التي يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعاً، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع لكنه يكفل لهم ولإخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة.

ثم أعود إلى الدور التائه الذي يبحث عن بطل يقوم به..

ذلك هو الدور وتلك هي ملامحه وهذا هو مسرحه ونحن وحدنا بحكم «المكان» نستطيع القيام به.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة


جمال عبد الناصر
فلسفة الثورة